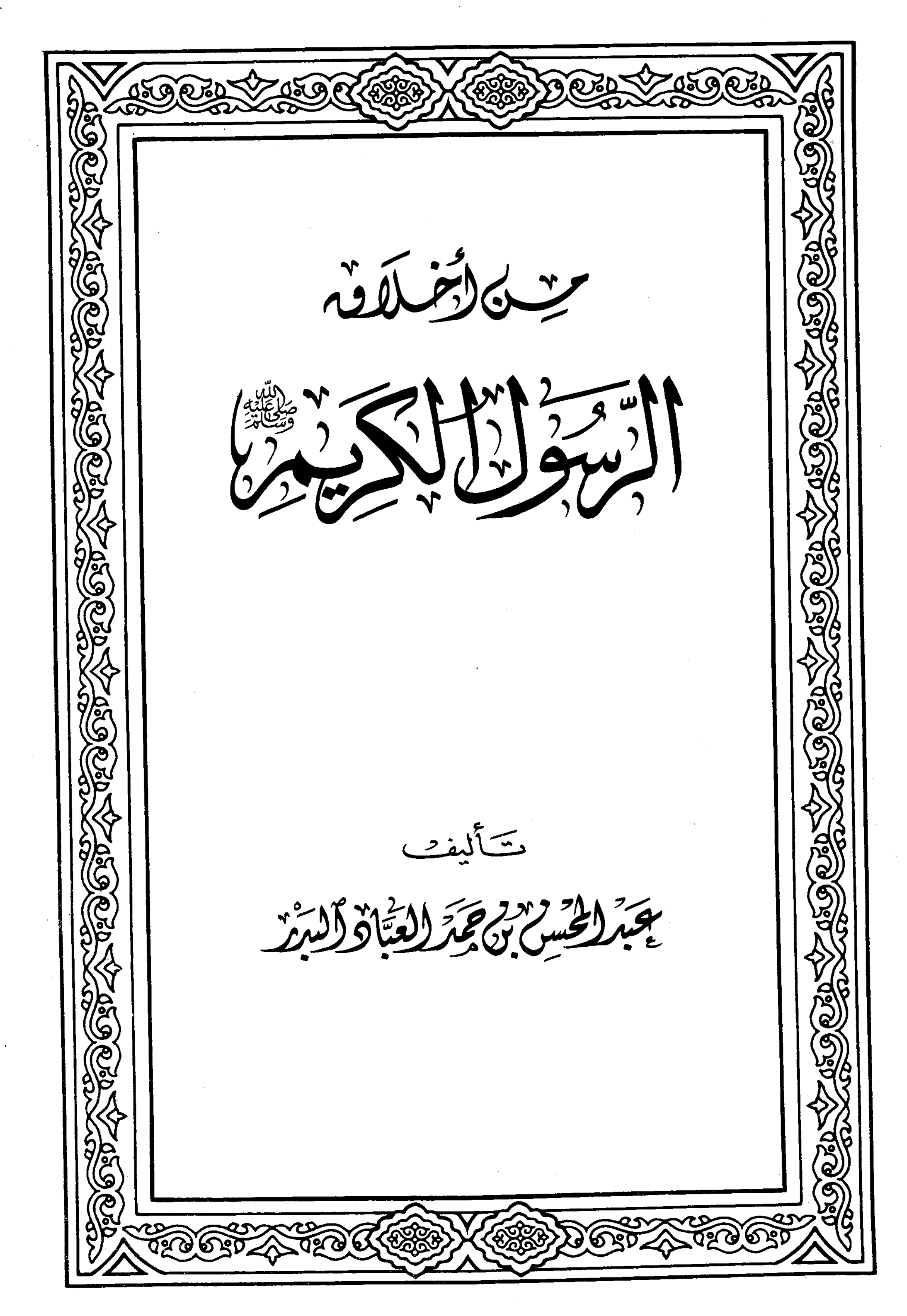


من أخلاق الرسول الكريم ﷺ

تأليف

عبد المحسن بن حمد العباد البدر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، نحمده سبحانه ولا نحصي ثناء عليه، أرسل نبيه محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، فارتضى له الإسلام ديناً، وجعل القرآن له خلقاً، امتن عليه بالصفات الفاضلة ثم أثنى عليه قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الخلق والأمر وبيده الخير وهو على كل شيء قدير، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله، قسم بين الناس أخلاقهم كما قسم بينهم أرزاقهم، فجعل نصيب المصطفى ﷺ من الرزق كفافاً، ومن الأخلاق أكملها وأحسنها وأوفاها، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليله وخيرته من خلقه، بعثه الله إلى أهل المعمورة؛ ليجدد به صلة السماء بالأرض، فأنزل عليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، ختم به الرسل، وختم بكتابه الكتب، وجعله معجزته الخالدة، فهدى الناس به إلى الصراط المستقيم، وحذرهم السبل التي تنتهي بهم إلى الجحيم، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، ومن وحشة القلوب وتقلباتها في أنواع المعبودات إلى أنسها وثباتها على عبادة فاطر السموات والأرض، قد أعظم الله عليه المنة وأتم به وعليه النعمة، إذ بعثه ليتم مكارم الأخلاق.

اللهم صل وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اختارهم الله لصحبته ونشر سنته، فجعلهم طليعة الأخيار وصفوة الأبرار، وعلى من سلك سبيلهم وسار على منوالهم مترسماً خطاهم، مقتفياً

آثارهم، عامر القلب بحبهم، رطب اللسان بذكرهم بالجميل اللائق بهم، والثناء عليهم بما هم أهله، والدعاء لهم بما علمنا الله في قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أما بعد: فموضوع هذه المحاضرة[١] موضوع حبيب إلى النفوس المؤمنة هو: **من أخلاق الرسول الكريم ﷺ** وكيف لا يكون حبيباً إلى النفوس الحديثُ عن أخلاق نبي بعثه الله رحمة للعالمين، نبي لا نكون مؤمنين حتى يكون أحبَّ إلينا من أنفسنا ووالدينا والناس أجمعين، نبي لا يؤمن أحدنا حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به ﷺ، نبي رغم أنفُ ثم رغم أنف ثم رغم أنف من ذكر عنده فلم يصل عليه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وهذا الموضوع العظيم الذي اخترته وآثرت الحديث فيه أعتذر مقدما عن تقصيري في توفيته حقه، وأعتقد أن توفيته حقه على الحقيقة نادر إن لم يكن متعذراً لكنه جهد مقل وكما يقولون: ما لا يدرك كثيره لا يترك قليله.

وأسأل الله العظيم رب كل شيء ومليكه أن يوفقنا جميعاً للتأدب بآداب هذا النبي الكريم صلوات الله ـ وسلامه عليه ـ وأن يحيينا على دين الإسلام الذي ارتضاه لنا دينا حتى يتوفانا عليه إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلَّا به.

وقبل الشروع في الموضوع أرى أن أتحدث بين يديه إجمالاً عن شدة الحاجة

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٣هـ.

إلى بعثته ﷺ، واختيار الله له، واعتراض المشركين على ذلك، والامتنان على الناس ببعثته، وضرب أمثلة للأمور والخصال التي حصلت بين يدي بعثته توطئة وتمهيداً لها.

شدة الحاجة إلى بعثته ﷺ

ما أكثر نعم الله على عباده، وما أحوجهم دائماً وأبداً إلى شكره سبحانه على هذه النعم التي امتن عليهم بها في قوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

وأعظم نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة أن بعث فيها رسوله الكريم محمداً ﷺ ليرشد إلى كل نافع في الحاضر والمستقبل ويحذر من كل ضار في العاجل والآجل، أرسله على حين فترة من الرسل واندراس من الكتب، في وقت انتشرت فيه الضلالة وعمّت فيه الجهالة وبلغت البشرية منتهى الانحطاط في العقائد والعادات والأخلاق، فأخرجهم به من هوة الضلالة ورفعهم إلى صرح العلم والهداية، فأزاح به عن النفوس تعلقها بغير خالقها وفاطرها سبحانه وتعالى، ووجهها إليه بقلبها وقالبها حتى لا يكون فيها محل لغيره سبحانه.

بل تكون معمورة بحبه، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، تستسلم لأوامره، وترعوي عن زواجره ونواهيه.

شيء من أمراض القلوب التي انتشرت قبيل بعثته ﷺ وكيف عالجها صلوات الله وسلامه عليه

خلق الله الإنسان مركباً من شيئين: بدنٍ وروح، وجعل لكل منهما ما يغذيه وينميه، وأرشد إلى طرق العلاج التي يعالج بها كل منهما عندما يطرأ عليه مرض أو سقم، فقد أغدق نعمه على عباده وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾.

أما الروح فقد استحكمت أمراضها قبل بعثته ﷺ حتى كانت من قبيل الأموات، فأحياها الله بما بعث به نبيه ﷺ من الهدى والنور ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾، وأرشد سبحانه إلى أن شفاء أمراضها وجلاء أسقامها إنما هو بما أنزل الله على محمد ﷺ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾.

نعم لقد بعث الله نبيه ﷺ في مجتمع انتشرت فيه الأمراض القلبية على اختلافها وتنوعها، وأعظم هذه الأمراض على الإطلاق تعلق القلوب بغير الله، وصرف خالص حقه سبحانه إلى غيره من مخلوقاته، فعالج ﷺ هذا المرض الخطير والداء العضال باستئصاله وتطهير القلوب من أدرانه أولاً، ثم شغلها وعمارتها بحب الله وخوفه ورجائه وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له؛ لكونه سبحانه المتفرد بالخلق والإيجاد، فهو بحق المستحق لأن يعبد وحده لا يعبد معه غيره كائنا ما كان.

وقد لقي ﷺ من المشركين في هذا السبيل ألواناً مختلفة من الإيذاء، فصبر حتى ظفر بنصر الله وتأييده، وكانت العاقبة له ﷺ وأنصاره ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

ولقي أيضاً منهم ألواناً من المعارضة والتعنت أوضحها الله في كتابه العزيز في سورة الحجر والإسراء وغيرهما من سور القرآن، ومن ذلك ما ذكره الله عنهم في سورة (ص) حيث قال عزّ وجلّ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ

إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾.

وقد حملهم على هذه المقالة الكبر والحسد، ومثل هذه المقالة التي حكاها الله عن كفار قريش ما ذكره الله سبحانه في سورة القمر عن قوم صالح بقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

وأبرز الطرق التي عالج بها ﷺ ذلك الداء الذي هو أعظم الأدواء على الإطلاق إلزام الكفار بأن يفردوا الله بالعبادة لما كانوا معترفين بانفراده سبحانه بالربوبية، وأكتفي بالتمثيل بآيات أوضحت تلك الطريقة غاية الإيضاح، وذلك قوله سبحانه: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وبما ذكره الله سبحانه في سورة الحج من التصوير العجيب والتمثيل البليغ لعجز المعبودات التي أشركوها مع الله حيث قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

ومن الأمراض التي عالجها ﷺ بحكمته الظلم، والجور، وازدراء المساكين، والتفاخر بالأحساب، والأنساب، فنشر فيهم العدل، وعمّهم الاطمئنان والاستقرار، وصار مقياس الفضل بينهم تقوى الله بدلاً من اعتبار ذلك بالحسب والنسب، وقد أعلنها ﷺ صريحة في حجة الوداع في أعظم جمع شهده ﷺ حيث قال: «ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم».

ولما بلغه ﷺ شأن المخزومية التي سرقت أمر بقطع يدها، فراجعه أسامة ابن زيد فأنكر ﷺ عليه ذلك وقال ﷺ المقالة التي برهن بها عن مدى تحقيق العدالة: «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وقد أشار ﷺ في جوابه لأسامة بن زيد إلى أن العدول عن العدل سبب هلاك الأمم المتقدمة حيث قال: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

ولما قسم ﷺ غنائم حنين وأكثر العطاء للمؤلفة قلوبهم وجد الأنصار رضي الله عنهم في أنفسهم شيئاً؛ إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فأتى إليهم ﷺ وقال: «ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟».

وقد ذكّرهم الله سبحانه في كتابه العزيز بهذه النعمة وأنها من أعظم النعم عليهم فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ

عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

هذه بعض الأمراض التي انتشرت قبل بعثته ﷺ، فمنّ الله سبحانه وتعالى على البشرية بإرسال رسوله الكريم محمدٍ ﷺ لينقلها من ذل عبادة المخلوق إلى عز طاعة الخالق جلّ وعلا، ومن الظلم والجور وسفك الدماء إلى ساحة العدل والأمن والاطمئنان، ومن الفرقة والاختلاف إلى الاجتماع والائتلاف، ومن التعاون على الإثم والعدوان إلى التعاون على البر والتقوى، ومن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الغش والخيانة إلى النصح والأمانة، ومن الجزع والهلع والاعتراض على قضاء الله إلى الصبر والثبات والرضى بما قدره الله وقضاه، وفي الجملة: من كل ضار عاجلاً وآجلاً إلى كل نافع في الحال والمآل.

وقد أرشد الله سبحانه إلى شكره على ذلك بعبادته وحده لا شريك له في قوله سبحانه: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾.

اختيار الله نبيه ﷺ

يقول الله سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بالخلق يقول للشيء الذي أراده: كن فيكون، وتدل أيضاً على أن تلك المخلوقات التي أوجدها من العدم لم يُسَوِّ

بينها، بل اختار منها ما شاء، وله الحكمة البالغة، فخصّه بالتفضيل، فقد اختار من أرضه مكة حرسها الله فجعلها مقر بيته الحرام من دخله كان آمناً، وصرف قلوب الناس إليه، وأوجب على المستطيع منهم حجه، وحرم صيده وقطع شجره، وضاعف أجر الصلاة فيه، وحذّر من الخروج عن طاعته سبحانه وأشار إلى عقوبة إرادة السوء في الحرم بقوله سبحانه ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

ويلي ذلك مهاجر رسول الله ﷺ هذه المدينة المباركة، حرّم رسول الله ﷺ قطع شجرها واصطياد صيدها، وأخبر بمضاعفة الصلاة في مسجده بقوله: « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلَّا المسجد الحرام ».

واختار سبحانه من الشهور رمضان، ففضله على سائر الشهور، واختار منه ليلة القدر، ففضلها على سائر الليالي، واختار من الأيام يوم عرفة فجعله أفضل الأيام، واختار من أيام الأسبوع يوم الجمعة فجعله أفضلها، واختار من الملائكة جبريل وإسرافيل وميكائيل فوكلهم بأسباب الحياة، واختار من البشر أنبياءه ورسله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ففضلهم على غيرهم، وجعل أفضلهم أولي العزم منهم، واختار الخليلين إبراهيم ومحمداً ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ فجعلهما أفضلهم، وجعل محمداً ﷺ أفضل الخليلين، وجعل أمته خير الأمم، فهو ﷺ إمام المتقين، وسيد المرسلين، وخليل رب العالمين، وخاتم النبيين، أقام الله به الحجة على الثقلين الجن والإنس، وأول قبر ينشق عند النفخ في الصور قبره، ولا يدخل الجنة أحد قبله، واختصه سبحانه بالمقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وهو الشفاعة العظمى في فصل القضاء التي يتخلى عنها آدم وأولو العزم من الرسل، كل واحد يقول: نفسي

نفسي اذهبوا إلى غيري، حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: أنا لها، ثم يشفع فيشفعه الله، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾.

وقد أشار سبحانه في كتابه العزيز إلى اختياره من يشاء بقوله سبحانه: ﴿ **ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ** ﴾.

وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ».

فهو ﷺ بنص هذا الحديث الشريف خلاصة خلاصة خلاصة باعتبار شرف النسب، كما كان خلاصة خلاصة باعتبار الفضل وعلو المنزلة عند الله.

اعتراض المشركين على اختيار الله له ﷺ

ولما بعث الله رسوله ﷺ إلى الناس كافة؛ ليهديهم به إلى الصراط المستقيم قابله المشركون بما يستطيعونه من الأذى، والمناوأة، وتأليب الناس عليه، وتحذيرهم منه، فوصفوه بأشنع الأوصاف فقالوا: إنه كاهن، وقالوا: مجنون.

هذا وهم أعلم الناس بماضيه المشرق الوضاء، ولكن الذي حملهم على ذلك الكبر والحسد؛ فقد أخبر الله عنهم في كتابه العزيز أنهم ﴿ **وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ** ﴾.

وقال سبحانه وتعالى مخبراً عنهم: ﴿ **وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ**

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، إلى أن قال مشيراً إلى حسدهم له ﷺ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن اعتراضهم على الله في اختياره لهذا النبي الكريم ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، فأنكر عليهم ذلك وبيّن أن الأمر أمره، والخلق خلقه، والفضل فضله يؤتيه من يشاء، فهو أعلم حيث يجعل رسالته فقال سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾.

ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾، إلى أن قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾، وقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد روى الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وروي أن الأخنس بن شريق دخل على أبي جهل فقال: « يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس ههنا من قريش غيري وغيرك

يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي بالسقاية، والحجابة، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟.

وقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهانٍ قالوا: منا نبي ينزل عليه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به ولا نصدقه)).

وهكذا يبلغ الكبر والحسد بهؤلاء القوم الذين دعاهم رسول الله ﷺ إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، حملهم ذلك على تجاهل الحقيقة، وإبداء خلاف المستقر في القلوب، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، متبعين في ذلك إمامهم في الضلال والحسد إبليس اللعين حيث فسق عن أمر ربه له بالسجود لآدم؛ كبراً، وحسداً، استناداً منه إلى أنه أفضل منه على زعمه؛ لكونه خُلق من نار وآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلق من طين.

امتنان الله سبحانه على الثقلين برسالته ﷺ

من رحمة الله سبحانه بعباده أن أرسل فيهم رسله يبشرون وينذرون كلما ذهب نبي خلفه نبي، حتى ختمهم بنبي الرحمة محمد ﷺ، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾.

ولقد اختار منهم سيدهم وإمامهم فجعله خاتم النبيين، واختصه بخصائص ومزايا لم يشركه فيها أحد منهم، كما اختص أمته بخصائص ليست لغيرها من الأمم السالفة.

ومن تلك المزايا التي امتاز بها على غيره من المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين أن بعثه إلى الأسود والأحمر بل إلى الجن والإنس جميعاً، كما قال سبحانه عن الجن الذين استمعوا لقراءته ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » فذكر من بينها: « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ويقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

وقد أوضح ذلك ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه حيث قال: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار ». قال سعيد بن جبير رحمه الله: « مصداق ذلك في كتاب الله ﷻ قال الله سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ ﴾.

ولا شك أن أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض هي إرسال هذا النبي الكريم الذي أكمل به الدين، وجعله حجة على الناس أجمعين.

وقد أخبر الله في كتابه العزيز عن إبراهيم وابنه إسماعيل أنهما دعوا الله لأهل الحرم وهما يبنيان البيت بأدعية من بينها ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

وقد أجاب الله دعاءهما فبعث في الأميين وفي غيرهم محمداً ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وتلك النعمة العظمى والمنة الجسيمة نوه الله بها في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ومنها قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

ومنها قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وإنما كان إرساله ﷺ إلى الناس أعظم منّة امتنّ بها على عباده؛ لأنَّ في ذلك تخليص مَن وفقه الله وهداه منهم من العذاب السرمدي بسبب الإيمان بالله ورسوله ﷺ والابتعاد عن الشرك الذي لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

التمهيد لبعثته ﷺ

ومن حكمة الله وفضله أن هيأ لنبيه ﷺ قبل أن يبعثه جميع أسباب الشرف والرفعة وعلو المنزلة، ووفر فيه جميع الخصال التي تؤهله للقيام بأعباء الرسالة العظمى، التي اصطفاه واختاره لها ﷺ، وفيما يلي أذكر على سبيل المثال بعض تلك الأسباب والخصال، وأبين كيف كانت توطئة وتقدمة لبعثته ﷺ.

أولاً: أن الله سبحانه جعله عريق النسب، كريم المنبت، اصطفاه من أشرف قبائل العرب، قبيلة قريش التي شهد لها غيرها بالسيادة والقيادة.

وهذه سنة الله في رسله كما جاء في سؤال هرقل ملك الروم لأبي سفيان عن رسول الله ﷺ: كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. ثم قال هرقل عند ذلك: وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وإنما كانت هذه سنة الله في رسله؛ ليسد على أعدائهم باب القدح فيهم والتنقيص لهم، فلا يجد أعداؤهم سبيلاً إلى إلصاق العيوب بهم.

ثانياً: أنه ﷺ نشأ فقيراً يتيماً في كفالة جدّه عبد المطلب ثم عمه أبي طالب.

وذلك من أسباب التواضع والتحلي بالصفات الحميدة والبعد عن الصفات الذميمة كالكبر والظلم وغير ذلك.

وقد ذكر الله ذلك منوهاً بتفضله على نبيه ﷺ بإيوائه وإغنائه وهدايته حيث قال سبحانه: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴾.

ثم أرشده إلى شكر هذه النعمة بأن يعطف على اليتامى والمساكين ويتحدث بنعمة الله عليه، قال: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾.

وهذه تربية إلهية لنبي الرحمة ﷺ ذكرها الله في كتابه العزيز، تنبيهاً لعباده المؤمنين بأن يحملوا أنفسهم على تلك الصفات الحميدة وغيرها، شكراً لله سبحانه على توفيقه لهم بالهداية بعد الضلالة، والغنى بعد الفقر، وغير ذلك من نعمه عليهم.

والمعنى لا تقهر اليتيم؛ فقد كنت يتيماً تكره أن تقهر، ولا تنهر الفقير؛ فقد كنت فقيراً تكره أن تنهر.

ولا شك أن تذكير الإنسان بنعمة الله عليه من أقوى الأسباب في الإقدام على الخير، والإحجام عن الشر لمن وفقه الله.

ثالثاً: أن الله سبحانه وتعالى أنشأه نشأة صالحة، وأنبته نباتاً حسناً، متحلياً بكل خلق كريم، بعيداً عن كل وصف ذميم، شهد له بذلك موالوه ومعادوه، ولكن من لم يشأ الله هدايته تعامى عن هذا كله، وأظهر خلاف ما يبطنه؛ كبراً وحسداً.

وفي توفيق الله لنبيه ﷺ للاتصاف بالصفات النبيلة، والسلامة من الأخلاق الرذيلة قطع لألسنة أعدائه، وإسكات لهم عن أن يعيروه بأدنى عيب، أو يصفوه بشيء من النقص.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: هل يغدر؟ قال: لا. ولم يستطع مع شدة عداوته لرسول الله ﷺ في ذلك الوقت أن يقول أكثر من قوله بعد نفي الغدر عنه: « ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها ».

قال: « ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ».

وقد تحرز من الكذب؛ خوفاً من ملك الروم، فأعداؤه ﷺ لا يستطيعون وصفه حقيقة بوصف معيب، أما الكذب والافتراء عليه ﷺ فقد قالوا عنه:

إنه ساحر، وقالوا عنه: شاعر، وقالوا عنه: كاهن وغير ذلك.

وقد صانه الله سبحانه من ذلك الذي ألصقوه به ومن كل عيب، وأنكر على المشركين افتراءهم وكذبهم عليه، وأخبر بأنه من ذلك براء فقال سبحانه: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

وقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾.

رابعاً: أنه ﷺ نشأ أمياً بين أميين لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاء من الله بهذا القرآن الذي قال الله فيه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

وفي نشأته ﷺ على هذه الصفة قطع للطريق التي ينفذ منها الكفار إلى تكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله، وأنه من أساطير الأولين قرأها أو كتبها لو كان كذلك، وقد أوضح الله ذلك بقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾. ثم أشار إلى حصول الريبة من أعدائه لو كان قارئاً كاتباً بقوله: ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾.

وتلك الطريق التي قطعت عليهم بجعله ﷺ أُمِّياً لا يقرأ ولا يكتب سلكوها كذباً وافتراءً على رسول الله ﷺ مع علمهم التام ببعده ﷺ عن ذلك، فقد أخبر الله عنهم أنهم قالوا: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾.

ويأبى الله إلَّا أن يتم نوره، ويظهر دينه، فيجيبهم بأن لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا الذي جاءهم به لسان عربي مبين. ولهذا نجد الله سبحانه وتعالى عند إنكاره على قومه ﷺ ما يقومون به من المعارضة والمناوأة له ﷺ يلفت أنظارهم إلى ماضيه المشرق الوضاء، ويُذكِّرهم بعلمهم ومعرفتهم التامة لحركاته وسكناته ومدخله ومخرجه فيقول سبحانه: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾، ويقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

ثم إنه أمر نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس له إلَّا التبليغ عن الله، وأنه لو شاء الله ما حصلت منه ﷺ تلاوة، ولا حصل لهم علم بذلك، فقال: ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ﴾، ثم ذكرهم بماضيه قبل إنزال القرآن عليه وما اتصف به من جميل الصفات، وأنه قد بقي فيهم قبل أن يبعثه الله أربعين سنة ملازماً لأسباب الرفعة، بعيداً عن أسباب الضعة والهوان فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ﴾، ثم أنكر عليهم وصفهم له بالكذب والافتراء مع أنهم أعلم الناس به، وأن ذلك مخالف للفطر والعقول السليمة، فقال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

ثم أخبر بأنه لا أحد أشد ظلماً وأكبر جريمة من اثنين: المفتري على الله، والمكذب بما جاء عن الله، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

خامساً: ومن الأمور التي حصلت بين يدي بعثته ﷺ توطئة وتمهيداً لها

الرؤيا الصالحة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح كما ثبت في صحيح البخاري وغيره.

سادساً: أنه ﷺ رعى الغنم بمكة، وفي ذلك تمهيد وتهيئة لإرساله إلى الناس كافة ليرشدهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، ويحذرهم مما يعود عليهم بالأضرار العاجلة والآجلة.

وإنما كان رعيه الغنم بمكة توطئة وتقدمة لبعثته ﷺ لأن هذا العمل مدعاة إلى التحلي بجميل الصفات كالتواضع والسكينة والوقار، مع ما فيه من اشتغال الراعي بالرعية، وبذله الأسباب التي تؤدي إلى سلامتها وقوتها فيعتني بها، ويرتاد لها المراعي الخصبة، ويبتعد بها عن الأراضي المجدبة ويحميها من الذئاب، ويسلك بها الطرق السهلة ويحيد بها عن السبل ذات الشدة والوعورة. وهذه سنة الله في رسله كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولله الحكمة البالغة في ذلك؛ فمزاولة مثل هذا العمل فيه ترويض للنفس، وتهيئة لها للقيام بأعباء الرسالة، فهو بلا شك درس عملي لرسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ يكسبهم مرونة وخبرة؛ لينتقلوا من تربية الحيوان إلى تربية بني الإنسان.

❊ ❊ ❊

أخلاقه ﷺ

تعريف الخلق:

الخُلق بضم اللام وسكونها: الدين، والطبع، والسَّجية، قاله ابن الأثير في (غريب الحديث).

وفي الاصطلاح يطلق إطلاقين: أحدهما أعم من الثاني، فيطلق على الصفة التي تقوم بالنفس على سبيل الرسوخ، ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم، ويطلق على التمسك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركاً.

ومن الأول قوله ﷺ لأشجِّ عبد القيس: « إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة »، قال: يا رسول الله أخلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما؟ قال: « بل جبلت عليهما »، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله.

ومن الثاني قوله ﷺ: « البر حسن الخلق »، وقول عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾: « كان خلقه القرآن »، هذا تعريف الخلق في اللغة والاصطلاح.

ننتقل بعده إلى الحديث عن أخلاقه الفاضلة، وسجاياه الحميدة في جميع مراحل حياته ﷺ، فقد كان ﷺ أحسن الناس خلقاً، اجتمع فيه من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيره، قد صانه الله سبحانه وحفظه من أدنى وصف يعاب صاحبه، كل ذلك حصل له من ربه فضلاً ومنّة قطعاً لألسنة أعدائه الذين يتربصون به، ويقفون في طريق دعوته، مؤذين له، محذرين منه، أحب شيء إليهم تحصيل شيء يعيبونه به وأنى لهم ذلك.

فقد نشأ ﷺ من أول أمره إلى آخر لحظة من لحظاته متحلياً بكل خلق

كريم، مبتعداً عن كل وصف ذميم، فهو أعلم الناس، وأنصحهم، وأفصحهم لساناً، وأقواهم بياناً، وأكثرهم حياءً، يضرب به المثل في الأمانة والصدق والعفاف، أدبه الله فأحسن تأديبه، فكان أرجح الناس عقلاً، وأكثرهم أدباً، وأوفرهم حلماً، وأكملهم قوة وشجاعة، وأصدقهم حديثاً، وأوسعهم رحمة وشفقة، وأكرمهم نفساً، وأعلاهم منزلة.

وبالجملة فكل خلق محمود يليق بالإنسان فله ﷺ منه القسط الأكبر، والحظ الأوفر، وكل وصف مذموم فهو أسلم الناس منه، وأبعدهم عنه، شهد له بذلك العدو والصديق.

وفيما يلي أورد بعض الشهادات التي شهد له بها الموالون والمعادون، الدالة دلالة بينة على تمسكه بالأخلاق الحسنة قبل أن يبعثه الله تعالى وذلك معلوم من الدين بالضرورة:

١ ـ شهادة خديجة رضي الله عنها: لما أوحى الله إلى نبيه ﷺ في غار حراء لأول مرّة ورجع إلى خديجة رضي الله عنها أخبرها الخبر وقال: «لقد خشيت على نفسي».

فقالت له رضي الله عنها: «كلاّ والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». رواه البخاري.

٢ ـ شهادة كفار قريش عند بنائهم الكعبة: ولما قامت قريش ببناء الكعبة قبل بعثة محمد ﷺ تنازعوا في رفع الحجر الأسود إلى مكانه، واتفقوا على تحكيم أول من يدخل عليهم الباب، فكان أول داخل رسول الله ﷺ ففرحوا جميعاً، وقالوا: جاء الأمين، جاء محمد، وقد كانوا يلقبونه بلقب الأمين؛ لما يعلمونه من أمانته ﷺ.

٣ ـ شهادة كفار قريش بصدقه ﷺ: ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ لما نزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد إلى الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ ». قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلَّا صدقاً. قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ». فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟.

٤ ـ شهادة أبي جهل بصدقه ﷺ: تقدم الحديث الذي رواه الحاكم بسند على شرط الشيخين أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك لكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾.

ولما قال له الأخنس بن شريق: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فقال: ويحك والله إن محمداً صادق وما كذب محمد قط إلخ.

٥ ـ شهادة أبي سفيان بين يدي هرقل ملك الروم بصدق رسول الله ﷺ ووفائه: فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان ابن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا ذهبوا إلى الشام، لأجل التجارة في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه،

فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم؛ سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منّا وننال منه، قال: بماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب؟ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله قط؟ فذكرت أنْ لا، قلت: فلو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان في آبائه من ملك؟ فذكرت أنْ لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أنْ لا، قلت: لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنّه خارج ولم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به إليه مع دحية بن خليفة الكلبي فقرأه، قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات فأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة؛ أنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام ».

ففي هذه القصة آيات بينات، ودلالات واضحات على نبوته ﷺ، وأنه ﷺ صادق فيما جاء به، ومحل الشاهد من القصة شهادة أبي سفيان بن حرب وهو من أشد أعدائه في ذلك الوقت على اتصاف الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله بالصدق وأنهم لا يتهمونه بالكذب، وبالوفاء وأنه لا يغدر.

٦ ـ شهادة السائب المخزومي له ﷺ بحسن المعاملة والرفق قبل النبوة: روى أبو داود وغيره أن السائب المخزومي كان شريك النبي ﷺ قبل البعثة فجاء يوم الفتح فقال: « مرحباً بأخي وشريكي لا تداري ولا تماري ».

وفي لفظ أنه قال للنبي ﷺ: « كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك لا تداريني ولا تماريني ».

وفي لفظ: « كنت شريكي ونعم الشريك، كنت لا تداري ولا تماري ».

٧ ـ شهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه بصدقه ﷺ: روى أحمد وأصحاب السنن عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل، فلما تبيَّنْتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذّاب، فسمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام».

٨ ـ شهادة مكرز بن حفص بن الأحنف له ﷺ بالوفاء في جميع مراحل حياته: كان رسول الله ﷺ عام الحديبية قد أبرم صلحاً بينه وبين قريش على أن يرجع ويعتمر من العام المقبل، ومن الشروط التي اشترطتها قريش على رسول الله ﷺ أن يدخل مكة بسلاح الراكب فقط (السيوف مغمدة)، فلما قدم ﷺ في عمرة القضاء استعدّ بالخيل والسلاح لا ليدخل بها الحرم، وإنما لتكون في متناول يده لو نكثت قريش، وعندما قرب ﷺ من الحرم بعث بها إلى يأجج وكان خبر ذلك السلاح قد بلغ قريشاً، فبعثت مكرز بن حفص بن الأحنف في نفر من قريش إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلّا بسلاح المسافر، فقال ﷺ: «إني لا أدخل عليهم بالسلاح وقد بعثنا به إلى يأجج». فقال مكرز: بهذا عرفناك بالبر والوفاء.

أخلاقه ﷺ في القرآن

تفضل الله تعالى على خليله محمد ﷺ بتوفيقه للاتصاف بمكارم الأخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ثم أثنى عليه ونوّه بذكر ما يتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز، أقتصر على إيراد بعضها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة، ووصف خلقه ﷺ بأنه عظيم، وأكد ذلك بثلاثة أشياء: بالإقسام عليه بالقلم وما يسطرون، وتصديره بإن وإدخال اللام على الخبر، وكلها من أدوات تأكيد الكلام.

وذلك الخلق العظيم الذي كان عليه ﷺ ورد تفسيره عن السلف الصالح بعبارات متقاربة، ففسره ابن عباس رضي الله عنهما بأنه الدين العظيم وهو دين الإسلام، وبهذا التفسير فسره ـ أيضا ـ مجاهد، والسدي، والربيع بن أنس، والضحاك، وغيرهم.

وفسره الحسن بأنه آداب القرآن.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

ومعنى ذلك أن امتثال ما أمره الله به واجتناب ما نهاه عنه في القرآن صار له خلقا وسجية.

وقد أشارت عائشة رضي الله عنها إلى ما يوضح هذا المعنى في حديث آخر متفق على صحته وهو أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

أي كان يدعو بهذا الدعاء امتثالا لما أمره الله به في سورة النصر في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

وقد نوّه سبحانه بما جبل نبيه ﷺ عليه من الرحمة والرأفة بالمؤمنين، والحرص على ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، والتألم من كل ما يشق عليهم بقوله سبحانه ممتنا على المؤمنين بإرساله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾.

وقال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾.

وقال: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم﴾.

وأشار سبحانه إلى ما اتصف به ﷺ من اللطف والرفق بأمته بقوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

أما ما اتصف به ﷺ من النصح والأمانة والقيام بأداء الرسالة على الوجه الذي أراده الله فقد ذكره سبحانه بقوله: ﴿والنجم إذا هوى ۝١ ما ضل صاحبكم وما غوى ۝٢ وما ينطق عن الهوى ۝٣ إن هو إلا وحي يوحى﴾.

ويقول تعالى - يعني محمدا ﷺ -: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾.

وفيها قراءتان بالظاء والمراد به المتهم، وبالضاد والمراد به البخيل، وكلا هذين منفي عنه ﷺ فليس هو بمتهم بكتمان ما أرسله الله به، وليس ببخيل بما أنزل الله عليه بل يبذله لكل أحد.

أخلاقه ﷺ في سنته وأقوال صحابته رضي الله عنهم

كان رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله بالرسالة العظمى في الذروة العليا من الأخلاق الحسنة صدقا، وأمانة، وكرما، وحلما، وشجاعة، وعفة، وقناعة، وغير ذلك من الصفات التي يحظى بالإجلال والإكبار مَنْ حصل على واحدة منها فضلا عمن جمعت له، وتوفرت فيه.

ولما بعثه الله سبحانه بالنور والهدى إلى الثقلين الجن والإنس زاده الله قوة في هذه الخصال الحميدة إلى قوته حتى بلغ الحد الأعلى الذي يمكن أن يصل إليه إنسان.

وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «إنما بعثت لأتم صالح الأخلاق».

وقد نوه الله سبحانه بتفضله وامتنانه على نبيه وخليله محمد ﷺ في آيات كثيرة كقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾.

وقد اختار سبحانه لنبيه ﷺ أصحاباً هم خير هذه الأمة المحمدية التي هي خير الأمم، وقفوا حياتهم في سبيل تبليغ دعوته، وحفظ سنته تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

ورثوا عن نبيهم ﷺ ما جاء به من الحق وَوَرَّثوه لمن جاء بعدهم، حتى هيأ الله له رجالا قاموا بتدوينه، منهم بل على رأسهم الإمامان الجليلان البخاري

ومسلم وغيرهما من المحدثين، فقد أفنوا أعمارهم ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ في تقييد تلك الدرر الثمينة التي ورثوها عن نبيهم محمد ﷺ بواسطة السلاسل الذهبية المتصلة بأمثال مالك، ونافع، وشعبة، وأحمد، وعلي بن المديني، وغيرهم من خيار هذه الأمة.

وهذه الدرر الثمينة التي توارثوها ـ ونعم الإرث هي ـ تشمل أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته، وبيان خلقه، وأخلاقه.

ولهذا يعرِّف المحدثون الحديث: بأنه ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف خَلْقي أو خُلُقي.

ولقد اعتنى هؤلاء الورثة الكرام بتدوين ما جاءهم عن نبيهم ﷺ على سبيل العموم، وبما يتعلق بأخلاقه ومزاياه على سبيل الخصوص، فمنهم من أفرد ذلك بالتأليف، ومنهم من عقد له أبوابا خاصة ضمن المؤلفات العامة أورد فيها ما يتصل بخوفه ﷺ ورجائه، وخشيته لربه، وجوده وإيثاره، وحيائه، ووفائه وصدقه، وأمانته، وإخلاصه، وشكره، وصبره، وحلمه، وكثرة احتماله، ورفقه بأمته، وحرصه على التيسير عليها، وعفوه، وشجاعته، وتواضعه، وعدله، وزهده، وقناعته، وصلته لرحمه، وكثرة تبسمه، وعفته، وغيرته، إلى غير ذلك من آحاد حسن خلقه ﷺ.

تفصيل القول في بعض أخلاقه ﷺ

وهذه الأخلاق التي أشرت إلى بعض آحادها يحتاج تفصيلها وبسط القول فيها إلى عدة محاضرات.

أما المحاضرة الواحدة فلا تكفي إلَّا للإشارة إلى بعض تلك الأخلاق والمزايا الحميدة التي أوتيها ﷺ.

١ ـ جوده وكرمه ﷺ:

وقد بلغ ﷺ في خلق الجود والكرم مبلغا لم يبلغه غيره، وصل فيه إلى الغاية التي ينتهي عندها الكمال الإنساني.

ومن توفيق الله له ﷺ أن جعل جوده يتضاعف في الأزمنة الفاضلة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما في الحديث الصحيح: « كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ».

جاد بنفسه في سبيل الله، فكسرت رباعيته، وشجّ وجهه، وسال الدم منه ﷺ والجود بالنفس أقصى غاية الجود، وجاد بجاهه، ومن أمثلة ذلك شفاعته ﷺ لمغيث زوج بريرة رضي الله عنها، لما عتقت واختارت فراقه أشار عليها أن تبقى في عصمته؛ رحمة منه ﷺ بزوجها مغيث.

وأخص الأمثلة في ذلك ما أخبر به ﷺ من شفاعته في أهل الموقف التي يتخلى عنها أولو العزم من الرسل، فتنتهي إليه فيقول أنا لها ﷺ.

وقد صح عنه ﷺ أنه قال: « لكلِّ نبي دعوة مستجابة قد دعا بها فاستجيب له فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ».

وجاد ﷺ بما أعطاه الله من المال، فما سئل ﷺ شيئاً من الدنيا قط فقال لا.

ولقد جاءت إليه ﷺ امرأة ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي؛ لأكسوكها فأخذها ﷺ محتاجا إليها ولبسها.

فقال له رجل من الصحابة أكسنيها يا رسول الله، فقال ﷺ: نعم، فدخل منزله فطواها، وبعث بها إليه، فقال له بعض الصحابة: ما أحسنت؛ لبسها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها ثم سألته وعلمت أنه لا يرد سائلاً.

فقال: إني والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفني.

قال سهل بن سعد رضي الله عنه: فكانت كفنه.

هذا مثل من أمثال اتصافه ﷺ بهذا الخلق الكريم، فهل بعد هذا كرم يصدر من مخلوق؟ وهل وراء هذا الإيثار إيثار؟.

ولقد وصف الله الأنصار في كتابه العزيز بصفة الإيثار في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾.

وهذه الصفة الكريمة التي اتصفوا بها؛ أسوتهم فيها وفي غيرها من مكارم الأخلاق سيد ولد آدم ﷺ، يقول سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

ولما رجع من حنين التف حوله الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ وقال: « أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ».

وجوده ﷺ في العطاء لبعض الناس إنما هو لتأليفهم على الإسلام، فكثيرا ما كان يخص حديثيّ العهد بالإسلام بوافر العطاء دون من تَمَكَّن الإيمانُ في نفوسهم، ففي غزوة حنين أعطى أكابر قريشٍ المئاتِ من الإبل، ومنهم صفوان ابن أمية، فقد روى مسلم في صحيحه أنه قال: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه مِنْ أحب الناس إليَّ.

وروى ـ أيضاً ـ عن أنس رضي الله عنه قال: « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلَّا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلَّا الدنيا فما يلبث إلَّا يسيراً حتى يكون

الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ».

أعطى رسول الله ﷺ ذلك الرجل تلك الغنم الكثيرة التي لكثرتها ملأت ما بين جبلين، وماذا كانت نتيجة هذا الإعطاء من رسول الله ﷺ؟.

لقد كانت حصول الغرض الذي من أجله أعطاه، وهي أنه أصبح داعية لرسول الله ﷺ لقد كان بدافع من نفسه رسولاً لرسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ويبين لهم كرم رسول الله ﷺ وأنه يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يبذل المال في سبيل نصرة الإسلام، والدعوة إليه، والترغيب فيه ينفق مال الله الذي آتاه في سبيل الله حتى توفاه الله، ودِرْعُه مرهونة في دين عليه ﷺ.

٢ ـ تواضعه ﷺ وقربه من الناس:

ولم يحصل لأحد من البشر ما حصل لرسول الله ﷺ من توفر صفات الكمال وبلوغ الحد الأعلى والغاية القصوى التي يمكن أن يبلغها إنسان، فكان ﷺ مضربَ المثل في الكمال الإنساني، والسمو الخلقي قبل البعثة وبعدها.

وقد خصه الله بخصائص، وميّزه بميزات امتاز بها عن البشر في الدنيا والآخرة، فجعله أفضل المرسلين الذين هم خير البشر، وجعله خاتمهم، وسيدهم، وإمامهم، وأولهم خروجاً من القبر، وأولهم تقدماً للشفاعة، وأولهم مشفعا.

وقال ﷺ متحدثا بنعمة الله عليه، ومبينا للأمة منزلته عند الله، ليعتقدوا ذلك، ولينزلوه المنزلة اللائقة به ﷺ من الإجلال، والتعظيم، والمحبة، والمتابعة، قال: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع » رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومع هذه الخصائص والميزات التي سَمَا بها إلى منزلة لا يساويه فيها غيره من أولي العزم من الرسل ـ فضلا عمن سواهم ـ كان ﷺ أشدَّ الناس تواضعاً، وأقربهم إلى الضعيف والمسكين، وأبعدهم عن الكبر والترفع.

ولما بيّن ﷺ لأمته بعض ما خصه الله به بقوله: « أنا سيد ولد آدم » أضاف إلى ذلك ما يبرئ ساحته من الفخر ـ وحاشاه من كل نقص ـ فقال: « ولا فخر » أخرجه الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وإنما أخبر ﷺ بمنزلته عند الله، لأنه لا سبيل للأمة إلى معرفة ذلك إلّا بواسطته، والتلقي عنه ﷺ إذ لا نبي بعده يخبر عن عظم منزلته عند الله كما أخبر هو أمته بفضائل الأنبياء قبله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليهم أجمعين.

ولما خُيِّرَ ﷺ بين أن يكون عبداً رسولاً أو نبيا ملكاً اختار مقام العبودية والرسالة على مقام النبوة والملك، أخرجه الإمام أحمد في المسند.

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال: « دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً ».

وروى ابن إسحاق في السيرة: « أن رسول الله ﷺ ليضع رأسه؛ تواضعاً حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ».

قال ابن كثير: « وهذا التواضع في هذا الموطن عند دخوله ﷺ مكة في مثل الجيش العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بني إسرائيل حين أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس وهم سجود ـ أي رُكَّع ـ يقولون: حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حنطة في شعرة ».

وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: « كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت ».

وروى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إنَّ لي إليك حاجة.

فقال: « يا أم فلان انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت عن حاجتها ».

وفي صحيح البخاري عن الأسود قال: « سألت عائشة ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة ».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت ».

وكان ﷺ إذا مرَّ بالصبيان سلم عليهم، روى مسلم في صحيحه عن شعبة عن سيار قال: « كنت أمشي مع ثابت البناني؛ فمر بصبيان فسلم عليهم. وحدث ثابت أنه كان يمشي مع أنس فمر بصبيان فسلم عليهم. وحدث أنس أنه كان يمشي مع رسول الله ﷺ فمر بصبيان فسلم عليهم ».

وكان ﷺ يخالط أصحابه، ويداعب الصبي الصغير، يقول أنس رضي الله عنه فيما رواه عنه البخاري في الصحيح: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: « يا أبا عمير ما فعل النغير؟ ».

وفي رواية أخرى عنه قال: « كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان لي أخ يقال له أبو عمير، قال أحسبه فطيماً، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير، نغير كان يلعب به ».

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: « خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين

فما قال لي: أف، ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟)).

وكان ﷺ يركب الدواب، ويردف بعض أصحابه وراءه عليها، وكان ﷺ يرشد أمته إلى التحلي بصفة التواضع، ويرغبهم في التخلق بها.

ومما قاله ﷺ في ذلك: ((وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله)) رواه مسلم.

وهو ﷺ سيد المتواضعين وأسوتهم، وقد رفعه الله إلى أعلى الدرجات، رفع قدره، وأعلى منزلته، وخلد ذكره.

ومع هذا التواضع والخلق العظيم الذي تفضل الله به على عبده ورسوله وخليله محمد ﷺ كان أصحابه ﷺ لا يملؤون أعينهم بالنظر إليه ﷺ؛ إجلالا واحتراما له ﷺ.

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه في حديث له أخرجه مسلم في صحيحه : ((وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه ؛ وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه)).

٣ ـ رحمته ﷺ بأمته ورفقه بها وشفقته عليها:

وبفضل الله ورحمته عليه ﷺ كان رحيما رفيقا كما قال الله تعالى مخاطبا إياه:
﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

فلم يحصل لأحد من البشر ما حصل لرسول الله ﷺ من الاتصاف بالرحمة والرفق، لا يقاربه في ذلك أحد ولا يدانيه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا بال في طائفة المسجد، فثار إليه الناس؛

ليقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: « دعوه واهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » أخرجه البخاري وغيره.

وفي صحيح البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ.

قال: فقال: « يا أيها الناس إن فيكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فإن فيهم الكبير والمريض وذا الحاجة ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا صلى أحدكم فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فَلْيُطَوِّل ما شاء ».

وعن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطوِّل فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأَتَجَوَّزْ في صلاتي؛ كراهية أن أشق على أمه ».

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم من النبي ﷺ وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف؛ مخافة أن تفتن أمه.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: « خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنتُ أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها ».

وقال ﷺ: « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة ».

وهذه الأحاديث كلها في صحيح البخاري.

ولما قام ﷺ بأصحابه ليلا يصلي بهم في رمضان خشي أن يفرض عليهم فترك الصلاة بهم.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ صلى في المسجد، فصلى بصلاته ناس ثم صلى الثانية فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبح قال: « رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلَّا أني خشيت أن تفترض عليكم وذلك في رمضان ».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « إن كان النبي ﷺ لَيَدَعُ العمل وهو يحب أن يعمل به؛ خشية أن يعمل به الناس، فيفرض عليهم، ولما واصل ﷺ في صيامه وعلم الصحابة رضوان الله عليهم ذلك واصلوا معه، فنهاهم عن الوصال؛ إشفاقا عليهم، قالوا: فإنك تواصل، قال: « إني لست كهيئتكم ».

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله قال: « وأيكم مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ».

فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوما، ثم رأوا الهلال فقال: « لو تأخر لزدتكم » كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

فإنه ﷺ نهاهم عن الوصال؛ رحمة بهم وشفقة عليهم فلما راجعوه في ذلك؛ رغبة منهم في موافقته واصل بهم وكان آخر الشهر يوما، ثم يوما، ثم رأوا الهلال وقال: لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

وهذا منه ﷺ إرشاد عملي وتأديب نبوي للصحابة الكرام رضي الله عنهم ليوقفهم على ضعفهم، وأن الوصال يشق عليهم، فيبتعدوا عنه من تلقاء أنفسهم.

وهذا تأديب النبوي يشبهه ما لو رأى والد وَلَدَه يحاول العبث بالنار فيعمل على تجنيبه ضررها بأن يأخذ بيده، ويضع أصبعه برفق على طرف جمرة

منها ليدرك مدى ضررها، فيكون حَذِرا منها؛ ويبتعد عن الوقوع فيها، لأن والده قد أوقفه على مدى ضررها.

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه لما شمَّت وهو في الصلاة رجلا عطس ووجد من الصحابة إنكارا عليه قال: « فلما صلى رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه؛ فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني.

قال: « إن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ».

وكان ﷺ إذا بلغه عن أحد من أصحابه ما يحتاج إلى تنبيه عليه قال في خطبته: « ما بال قوم يفعلون كذا، وما بال رجال من أمتي يقولون : كذا ».

وما أشبه ذلك، وذلك؛ ليعدل عنه من صدر منه، وليحذر الوقوع فيه من لم يباشره.

٤ ـ عفوه وحلمه ﷺ:

وكما كان ﷺ غاية في الرحمة والشفقة فهو غاية في العفو، والحلم، والصفح، والصبر، والتحمل.

وسيرته العطرة حافلة بالوقائع الدالة على ذلك، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال: « غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها.

قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله ﷺ: « إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على

رأسي، فلم أشعر إلَّا والسيف صلتا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، فشام السيف فها هو ذا جالس لم يعرض له رسول الله ﷺ ».

وهذا لفظ مسلم، وعند البخاري « ولم يعاقبه وجلس ».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: « مهلاً يا عائشة؛ إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله ». فقلت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوه؟ قال رسول الله ﷺ: « قد قلت: وعليكم ».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلَّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلَّا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها ».

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه قال: « كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ وقد أثَّرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء ».

٥ ـ نصحه ﷺ في الدعوة إلى دين الله:

لما بعث الله رسوله محمداً ﷺ بالدين القويم قام بأعباء هذه المهمة على الوجه الأكمل، وصبر على ما اعترضه في هذا السبيل من أذى.

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله

ﷺ: « يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، فقال: « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلَّا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ».

فقال له رسول الله ﷺ: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ».

إن هذا لهو الخلق العظيم يناله ﷺ مثل هذا الأذى، وتحف به المصائب، فينطلق على وجهه مهموما، ثم تعرض عليه ملائكة الله القضاء على أعدائه بأن يطبقوا عليهم الأخشبين ـ وهما جبلا مكة ـ فلا يستجيب لهذا العرض، ويجيب بالإجابة التي تبرهن على تمام نصحه ومحبته لأن يُعْبَد الله وحده فيقول: « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا ».

وقد ترك ﷺ الناس على محجة بيضاء واضحة كفيلة لمن سلكها بعز الدنيا وسعادة الآخرة، جاء ذلك نتيجة لاتصاف الرسول ﷺ بكمال النصح، وقوة البيان، ونهاية الأمانة، فما من شيء يقرب إلى الله إلَّا دل عليه أمته ورغبها فيه، كما حذرها مما يخالف ذلك، فلم يُقَصِّر ﷺ في إبلاغه شرع الله، ولم يقصر في بيانه عند الإبلاغ.

أخرج مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه قيل له: « قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة.

قال: فقال: أجل؛ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط، أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو عظم ».

وقد أعلن ﷺ قيامه بواجب التبليغ في أعظم جمع لقيه، وذلك في حجة الوداع، واستشهد الناس على أنفسهم، فشهدوا الشهادة الحق بإبلاغه رسالة ربه، وتأديته ما أمر به على أكمل وجه، ونصحه في ذلك، وذلك في حديث جابر رضي الله عنه الطويل في صفة حج النبي ﷺ الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وفيه قوله ﷺ وهو يخطب الناس يوم عرفة : « وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله، وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون ؟ ».

قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: « اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات ».

ولم يَدَعْ ﷺ وسيلة فيها إيضاح، وإفهام للناس، وحفز للهمم إلى القيام بطاعة الله، والبعد عن معصيته إلَّا سلكها في سبيل دعوته إلى الله وتحذير أمته من النكوب عن الشرع القويم الذي جاء به ﷺ فكان يضرب الأمثلة التي تجعل الشيء المبين في صورة المحسوس المشاهد.

ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا، فانطلقوا

على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، وصبحهم الجيش، فأهلكهم، واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق».

وفي صحيحه - أيضاً - عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بِحُجُزِكُم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي».

واتفق البخاري ومسلم على إخراج هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان ﷺ إذا سئل عن شيء وكانت الأهمية لغير المسؤول عنه لفت نظر السائل برفقه وحكمته ﷺ إلى ذلك الأهم، ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟»، قال: لا شيء إلَّا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت».

إلى غير ذلك من الوسائل التي اتبعها ﷺ في هدايته وإرشاده.

٦ - قوته وشجاعته ﷺ:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير كما قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد جمع الله أنواع القوة في عبده ورسوله محمد ﷺ جمع له إلى القوة الإيمانية الكاملة القوة البدنية، فاستعمل هذه القوة في عبادة الله، وطاعته، والسعي الحثيث إلى كل ما يقربه إليه، وهو الأسوة والقدوة لأمته في كل خير.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه».

قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال: « يا عائشة أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا؟ ».

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة ».

وفي الصحيحين أيضا عن أنس رضي الله عنه قال: « كان رسول الله ﷺ أحسَنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج، وفي عنقه سيف فقال: لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر ».

وكان رسول الله ﷺ يتقدم أصحابه في الجهاد في سبيل الله وقد شج وجهه وكُسِرَت رَبَاعِيَتُه ﷺ يوم أحد.

وفي غزوة حنين ثبت رسول الله ﷺ حين انهزم الكثير ممن معه، ففي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلا قال له: « يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوما رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ في لجام بغلته البيضاء وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ».

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره بعد سياق هذا الحديث: « قلت وهذا في غاية

ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا كر ولا هرب، وهو مع هذا يركضها على وجوههم وينوه باسمه؛ ليعرفه من لم يعرفه ﷺ دائما إلى يوم الدين ـ وما هذا كله إلَّا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلما منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان ».

حقه ﷺ على أمته وحق أمته عليه

ولعل من المناسب أن أختم هذه المحاضرة المشتملة على نماذج من أخلاقه ﷺ بالإشارة إلى مجمل حقه على أمته، وحق أمته عليه ﷺ فأقول:

من حقه على أمته ـ وقيامهم بهذا الحق عنوان سعادتهم ـ أن يشهدوا بأنه رسول الله حقا إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة، وأنها عامة لكل أحد، فلا يسع أحدا الخروج عنها.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار ».

وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان، وأنه لا سعادة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة إلَّا لمن سلك سبيله، وسار على نهجه، وأنه هو الأسوة والقدوة لأمته، وأنه الصادق المصدوق في أخباره غائبها وماضيها ومستقبلها، وأن تكون القلوب عامرة بحبه محبةً أعظم من محبة النفس والوالد والولد والناس أجمعين.

ومن محبته ﷺ محبة شريعته، وتعظيمها، وتحكيمها، والتحاكم إليها كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

وأن تكون العبادة لله خالصةً، وعلى وفق الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ فلا يعبد الله إلَّا بما شرع، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ».

وما أحسن قول أبي عثمان النيسابوري إذ يقول: « من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ».

وقد جمع هذه الأمور في عبارة وجيزة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حيث قال في بيان المراد بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ قال: « طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلَّا بما شرع ».

ومن حقه على أمته ﷺ أن تكون الألسنة رطبة بالثناء عليه بكل ما يليق به، مع الحذر من الغلو الذي لا يرضاه الله ولا رسوله، وبالثناء على سنته، وإيضاح محاسنها، وبيان ضرورة الناس إلى التمسك بها، وأن تكون الألسنة رطبة بالصلاة والسلام عليه ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان، والبخيل حقًّا من ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصل عليه، وأرغم الله أنف مَن ذكر عنده النبي ﷺ فلم يصل عليه، وأبخل ممن يبخل بالدرهم والدينار من يبخل بالصلاة والسلام على النبي ﷺ عند ذكره صلوات الله وسلامه الأتمان الأكملان عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما حق الأمة عليه فهو إبلاغهم رسالة ربهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾،وقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

روى البخاري في صحيحه عن ابن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: «من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» انتهى.

وقد منّ الله على المؤمنين بإرسال رسوله الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - وقام رسول الله ﷺ بإبلاغ الرسالة على أكمل الأحوال وأتمها.

وأنزل الله تعالى عليه في أواخر حياته في حجة الوداع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله، وأنتم تسألون عني فماذا أنتم قائلون؟».

قالوا نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات» رواه مسلم.

فالذي من الله وهو الرسالة، والذي على الرسول وهو البلاغ، كل منهما قد حصل على التمام والكمال.

أما الذي على الأمة وهو التسليم، فالسعيد من يوفق للقيام بذلك قولا وفعلا واعتقادا، والشقي الطريد المخذول من كان بخلاف ذلك.

وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم أن يوفقنا جميعا للتأدب بآداب هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن يمن علينا بالتوفيق لاقتفاء آثاره، والسير على نهجه، وأن يميتنا على سنته، ويحشرنا في زمرته، ويجعلنا من الفائزين بشفاعته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلّا به.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



الفهرس

* * *